مقياس علم النفس اللغوي: ماستر 1 لسانيات عربية

المحاضرة السادسة:

نّظريات التعلم في ضوء علم النفس اللغوي

الأستاذة وهيبة بن حدو

النظريات الارتباطية:

3- **النّظرية السّلوكية:** (behaviourisme)

يعتبر السلوكيون أن اكتساب اللغة عند الطفل لا فرق بينها وبين أي سلوك آخر، لأن اللغة عندهم شكل من أشكال السلوك. ويدور محتوى النظرية السلوكية حول أن السلوك اللغوي عبارة عن مجموعة من الاستجابات الناتجة عن مثيرات للمحيط الخارجي، مختلفة من حيث أنواعها بين أن تكون المثيرات طبيعية أو اجتماعية أو غيرها، حاضرا فعلا أو غائبا خارجيا أو داخليا. وهذا السلوك اللغوي هو الناتج عن تلك الاستجابة لمثير محدد، فإذا تعززت تلك الاستجابة بالتكرار والإعادة، تحولت إلى عادة لغوية راسخة يتعامل بها الطفل بتلقائية، وتصبح ضمن سلوكه اللغوي. وفحوى هذه المصطلحات الأساسية المشكلة لهذه النظرية هي كالآتي:

المثير: كل عمل مادي أو معنوي داخلي في الإنسان أو خارجي يؤثر في الإنسان ويدفعه إلى التصرف بشكل من الأشكال، وهو عند هاريمان بأنّه أي صورة للطاقة تنتج استجابة، أو أي طاقة خارجية بالنّسبة لعضو الاستقبال تؤثر عليه وتستثيره. ويعرّفه سكينر على أنه نوع من الأحداث البيئية التي لا يمكن تحديدها منفصلة عن ملاحظات أسلوب معيّن من أساليب الكائن الحي. وليس غريبا على أن حياة الإنسان مليئة بالمثيرات الداخلية والخارجية التي يتفاعل معها بشكل إيجابي، فتحمله على التصرف بصورة من الصور.

أما الاستجابة: فهي ردة الفعل الناتج عن المثير كفعل طبيعي يتصف به الكائن الحي، أي طريقة التفاعل الإيجابي مع المثير الحاصل عند الإنسان، وتعرّف الاستجابة تعريفا بيولوجيا بأنّها: تقلّص عضلي أو إفراز غدّي (من الغدد) أو أي نشاط آخر ينتج عنه استثارة.

أما التّعزيز أو التّدعيم (renforcement) فهو القصد إلى تقوية الاستجابة وتأكيدها بشكل تصبح مؤسسة عند الإنسان، عملا على ترسيخها لتكون عادة كلامية راسخة. وهو العلاقة القائمة بين حدثين هما المثير والاستجابة، وما يتبعها من أحداث ومؤثرات، وكلّما زاد احتمال ظهور الاستجابة

تسمّى العلاقة بين هذه العوامل تعزيزا. وعلى المستوى البيداغوجي، فالتّعزيز هو المكافأة والتّشجيعات التّي تقدّم للمتعلّم كلّما أبدى سلوكا مرغوبا فيه.

والتّعزيز نوعان: إيجابي: يتمثّل في تقوية وتدعيم الاستجابة الصادرة عن المتعلم، وذلك عندما تكون استجابته استجابة صحيحة مطلوبة. أما السلبي: فيرتبط بإيقاف وإزالة ما ورد عن المتعلم من استجابة ولكنها خاطئة. لذلك تقوم النظرية السلوكية على هذا الثلاثي المتلازم، المثير فالاستجابة أولا، ثم التعزيز حرصا على ترسيخ الحدث وتفعيله أكثر ليصبح عادة كلامية بعد ذلك.

وقد تزعم هذه النظرية بشكل كبير مجموعة من اللسانيين والنفسانيين، ونخص بالذكر، بلومفيلد الأمريكي، وواطسن، وسكينر، وهم الذين أبدوا بآرائهم لتشكيل محاور هذه النظرية وتصبح من أشهر النظريات في تاريخ التعليمية.

أولا: السّلوكية عند بلومفيلد[1]:

ظهرت النّظرية السّلوكية التي تزعمها ليونارد بلومفيلد في الثّقافة اللّسانية الأمريكية منذ أن ظهر كتابه" اللّغة" (le langage) إلى الوجود عام 1933. وهو الكتاب الذّي هيّأ للدّراسات الأمريكية منهجيا لقبول مبدأ التّوأمة بين علم النّفس السّلوكي واللّسانيات، وهي الجهود التّي قام بها بلومفيلد من أجل هذا الغرض، فبعد أن استلهم المعطيات النّظرية لعلم النّفس السّلوكي الذّي كان سائدا آنذاك في مجالات العطاء الفكري الإنساني، أسقطها على المنهج الوصفي اللّساني، ممّا أدّى إلى ظهور نظرية لسانية متكاملة، ولذلك ينظر إليها على أنها نظرية آلية للغة. وتُعرّف بأنّها: نظرية نفسية أثّرت بشكل حاسم في السّلوكية المعاصرة؛ حيث يكون هناك سلوك يُبنى على تعزيزات، أي هناك ما يسمّى بـ: الإجراء والإشراط الإجرائي والتّعزيز والعقاب[2].

يستعين بلومفيلد في هذه النظرية بقصة جاك وجيل تلك القصة التي تحمل رؤية كاملة لقضايا السلوكية من المثير إلى الاستجابة. وملخص القصة أن جيل شعرت بالجوع فرأت التفاحة فطلبت الأكل ثم حصل القفز على التفاحة وتحقق الهدف. والمتأمل لهذه القصة يجد أنها تحمل أحداثا قبل عملية الكلام، تتمثل في الإحساس بالجوع ورؤية التفاحة، وهذا يمثل الحافز أو المثير. ثم يحدث التكلم كاستجابة للمثير السابق وذلك عندما طلبت التفاحة. لهذا يرى بلومفيلد أن عملية التكلم عند الإنسان تخضع للحافز فتحدث الاستجابة.

لقد تطوّرت النّظرية اللّسانية السّلوكية، وأخذت مسارها الطّبيعي في الوصف اللّساني على يدّ اللّساني الأمريكي بلومفيلد ، الذي كان جادّا في تطبيقها، ومتهيّئا لنتائجها، وانعكاساتها على وصف

---

1 - يونارد لبلومفيلد (1887- 1949) باحث أمريكي من مدين هارفرد، متخصص في اللغة الألمانية التق بعالم النفس ويس فجعله يراجع أسس مبادئ الألسنية انسجاما مع النظرية السلوكية في علم النفس.

2- اللسانيات النشأة والتطور- أحمد مومن، ط/1، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص:194

بنية النّظام اللّساني، وتفسيرها تفسيرا آليا[3]. إذن فاقتحمت النّظرية اللّسانية السّلوكية الميدان اللّساني، وأضفت عليه طابعها الخاص، فأمست الأشكال اللّغوية تحلّل كما هي في الواقع اللّغوي، دون أي اعتبار للبنية الضّمنية المتوارية خلف البنية الظّاهرة[4].

ثانيا: السّلوكية عند واطسون:

تعرف النّظرية السّلوكية، بأنها مدرسة نفسيّة من مدارس علم النّفس التّجريبي، تقوم على فكرة جوهرية تتمثّل في أنّ علم النّفس لا يمكنه الارتقاء إلى مستوى العلم الحقيقي إلا إذا تبنّى المنهج المعتمد في العلوم الطّبيعيّة، ولا يمكن اعتماد هذا المنهج إلا إذا كان موضوعه قابلا للملاحظة والتّجريب. وقد نشر واطسون في أبحاثه الأولية المبادئ التي يؤمن بتا في هذا المجال وبين ضرورة حصر علم النفس التجريبي في دراسة السلوك الملاحظ المباشر الظاهر. ووجوب التّخلّي في دراسة السّلوك عن الاهتمام بشعور الإنسان وما يجري في داخل نفسه وعقله. ولا يعني ذلك أنّ السّلوكيّين ينكرون وجود الوعي والشّعور، لأن ذلك غير ممكن بحال من الأحوال، ولا يمكن لهم التفكير في ذلك، ولكنّهم يرون أن العقل والمشاعر لا يمكن لهم ملاحظتها ولا قياسها لأنها غير ملاحظة، وعليه يرون أنه من الممكن الاعتماد على شيء غير ملاحظ علميا حسب زعمهم. وحجّتهم في ذلك أنّ الشّيء الموضوعي الذّي يمكن ملاحظته ودراسته وقياسه إنّما هو السّلوك والتّصرف الموضوعي. ذلك السّلوك الذي يمكن إخضاعه للملاحظة مثلما يجري في حينه، ويمكن قياسه من حيث الزمن الذّي يستغرق أداؤه. وتحليله إلى أجزاء متعدّدة، وتعديله أو تغييره، وضبط الشّروط التّي تؤدّي إلى ظهوره، ومن ثمّة التّحكم في هذا الظهور نفسه، من خلال تفسير شروطه. أمّا ما يجري داخل نفس الإنسان وما يشعر به فأمر شخصي بحت لا يخضع للملاحظة العلمية، ولا ينطبق عليه قياس. وقد بدأ السّلوكيون بدراسة السّلوك الحيواني، وذلك لإيمانهم بأنّ الفرق بين الإنسان والحيوان هو فرق في الدرجة، لا فرق في النّوع. وتبيّن للسّلوكيين من دراستهم أنّ السّلوك يتلخّص في المبدأ المعروف: مثير– استجابة. أي أنّ السلوك إنّما يكون استجابة لمثير أو منبه يقع على مناطق إحساس الكائن الحي، ثمّ ينتقل إلى الأطراف العصبية للمخ، وينتهي الأمر باستجابة معينة.[5]

فمن أين استمد واطسون نظريته هذه؟

---

3 – معجم علوم التربية، مصطلحات البيداغوجيا الديداكتيك عبد اللطيف الفارابي، مُحَمَّد آيت موحى، عبد العزيز الغرضاف، عبد الكريم غريب –، ج:1، ط:1، المغرب، ص: 100.

4 – دراسات في اللسانيات التطبيقية، حقل تعليمية اللغات، أحمد حساني، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر2000، ص:20.

5 – ينظر: دراسات في اللسانيات التطبيقية، أحمد حساني، حقل تعليمية اللغات، ص:90.

لقد استمد واطسون هذه الرؤية من نظرية التعّلّم بالفعل المنعكس الشّرطي لبافلوف[6] الذي كان منشغلا بدراسة عملية الهضم عند الكلاب الجائعة لغرض علمي بحت، انتبه إلى ظاهرة تابعة أثارت اهتمامه وهي لعاب الكلاب عند رؤيتها الطّعام، أو رؤيتها للشّخص الذّي يطعمها عادة، وقد يسيل اللّعاب أحيانا بمجرد سماع حركة ذلك الشّخص الذّي يطعمها عادة عن بعد. اهتمّ بافلوف منذ الانتباه إلى هذه الظّاهرة، لرصد هذه الظّاهرة، وكان ذلك بالعمل الآتي:

قام بتقديم الطّعام للكلب كالعادة، ولكن هذه المرّة بمثير مصاحب خارج عن الطّعام نفسه، ولم يكن الكلب قد ألفه من قبل، وهذا المثير الجديد هو قرع الجرس أثناء تقديم الطّعام. لم يستجب الكلب في البداية لهذا المثير الجديد ولكنّه بعد تكرار التّجربة من عشرين إلى أربعين مرّة، أصبح هذا المثير قادرا على إحداث الاستجابة المتمثلة في سيلان اللّعاب، حتّى وإن كان غير مقترن بإحضار الطّعام. ويفسّر بافلوف عملية التّعلّم تفسيرا فسيولوجيا على أساس تكوين ارتباطات عصبية دقيقة بين الأذن والطّعام. فالعملية تبدأ بإثارة الحواس ثمّ تنتقل بواسطة الألياف العصبية إلى المراكز العصبية، وتنتهي بالتّقلص وإفراز الغدد[7]. سمّى بافلوف الجرس في هذه الحالة بالمثير الشرطي، والطّعام بالمثير الطّبيعي أو المثير غير الشّرطي، وسمّى سيلان اللّعاب بالفعل المنعكس الشّرطي (الاستجابة). وهو اقتران حدوث المثير الأصلي بمثير آخر عن طريق التّجربة المتكررة عدّة مرات، فيكتسب المثير الجديد صفة المثير الأصلي وينوب عنه في إحداث الاستجابة، وهذا النّوع من الاكتساب أبسط أنواع التّعلّم عند الكائن الحي.[8]

ثالثا: السلوكية عند سكينر: (skinner)

تعرف نظرية سكينر في هذا المجال بالتّعلّم بالإشراط الإجرائي، حيث قدم سكينر رؤية واضحة لعملية اكتساب اللغة عند الطفل، تتمركز حول نقطتين هما:

- أن اللغة مهارة كغيرها من المهارات تنمو عند الطفل.
- وأن هذه المهارة (اللغة) تتعزز بالمكافأة والتأييد والقبول.

ففي منظور النّظرية السّلوكية عملية ناجمة عن التّفاعل بين الكائن الحي والمحيط، فالمحيط يتضمّن العديد من المثيرات التّي تتطلّب من الكائن الحيّ استجابات معيّنة، ويمكن أن يتكرّر حدوث هذه الاستجابات إذا لقيت تدعيما خارجيا، وفي هذا الإطار تندرج نظرية سكينر، فالمحيط يمثّل في نظريته مكانة بارزة،

---

6 - العالم الفيزيولوجي إيفان بافلوف (ivan pavlov) 1849-1936، الذي عرف بعطائه الوافر في مجال حقل العلوم الطبّية والدراسات الفيزيولوجية. وازدادت شهرته بخاصة حين اقترن اسمه بالمخبر الفيزيولوجي لمعهد الطّب التجّريبي في لينيغراد الذّي كان يديره إلى آخر حياته، والذّي عكف فيه لمدة 12 سنة لدراسة الغدد الهضمية للكلاب، ونظام أعصابها وانعكاساتها، وتوّجت أبحاثه بحصوله على جائزة نوبل عام 1904.

7 – مباحث في اللّسانيات، أحمد حساني ، ط/1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص:152.

8 – دراسات في اللّسانيات التّطبيقية – حقل تعليمية اللّغات أحمد حساني، ص: 56.

ولكنّه يؤكّد في الوقت نفسه على أهمية العوامل الوراثية التّي تتوفّر في الكائن الحيّ منذ ولادته.[9] ويقصد بالاشتراط الإجرائي عمليّة التّعلّم التّي تصبح فيها الاستجابة أكثر احتمالا للحدوث، ومصطلح "إجرائي" يستخدمه سكينر لوصف مجموعة من الاستجابات أو الأفعال التّي يتألّف منها العمل الذّي يقوم به الكائن الحي، مثل رفع اليدّ، الكتابة، الشّرب[10].

أسسها العلمية ومرجعيّتها الفلسفية:

من خلال ما عرضناه آنفا، ترتكز هذه النّظرية على جملة من الأسس العلمية، منها:

01 – استبعاد الجوانب الذّهنية مثل العقل، والتّصور والفكرة، ودحض كلّ تحليل يعوّل على الاستبطان، وإبراز ما يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة بالاعتماد على السّلوك الظّاهري دون سواه. وحين تطبيق هذا المنهج على الظّاهرة اللّغوية ينصّب التّحليل على الأشكال اللّغوية الظّاهرة، والمواقف المباشرة التي أدّت إلى إنتاجها في الواقع اللّغوي.

02– استبعاد دور الدّوافع والقدرات الفطرية في الظّواهر السّلوكية، وإعطاء أهمية قصوى لعملية التّعلّم في اكتساب النّماذج السّلوكية.

03– التركيز على الملاحظات والسلوكات المباشرة للسلوك الظاهر، وذلك لأنهم يعتمدون التجريبيّة، وهي اتجاه شاع في دراسة العلوم الطبيعية، ويعتبر أنّ كلّ معرفة حتّى تكون عملية يجب أن تخضع إلى إجراءات المنهج العلمي، وعلى رأس هذه الإجراءات التّجربة. لذلك يرون أن التّواصل اللّغوي يعد نوعا من الاستجابات لمثيرات ما تقدّمها البيئة أو المحيط. وبناء على هذه الأسس فالمتكلّم في نظر بلومفيلد وأتباعه حين أدائه الفعلي للكلام، يكون قد قام باستجابات نطقية لمثيرات ما تخضع خضوعا مطلقا لحافز البيئة، دون أن ترتبط هذه الاستجابات بأدنى قدر من التّفكير، لأنّ الاستجابة الكلامية مرتبطة بصورة مباشرة بالحافز، ولا تتطلّب تدخل الأفكار، وذلك لأنّ اللّغة في نظرهم لا تعدو أن تكون عادات صوتية يكيّفها حافز البيئة. ترتكز المعطيات العلمية للتفسير السّلوكي على التّجارب المخبرية التّي أجريت على الحيوانات. والنّتائج المحصّل عليها في هذا المجال، جعلت السّلوكيين يعمّمونها على المظاهر السّلوكية لدى الإنسان، فتبدو اللّغة وفق هذا المنظور سلسلة من الاستجابات المتتالية.[11]

04– الفلسفة الوضعية (positivisme): هي مذهب فلسفي يعنى بالظواهر اليقينية، ويرفض كلّ تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة، أي أنّ هذه الفلسفة لا تسلّم إلا بما هو مرئي تجريبي، وتنفي صفة العلمية عمّا سوى ذلك.[12]

---

9 – نفسه، ص:57.

10 – ينظر: نظريات التّعلّم وتطبيقاتها التّربوية، مُحَمَّد مصطفى زيدان، ص95.

11 – دروس في اللسانيات التطبيقية– صالح بلعيد ط:3، دار هومة للطباعة، الجزائر، 2000، ص:22.

12– نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، مُحَمَّد مصطفى زيدان، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1 1983، ص:93.

05- البراجماتية (النّفعيّة): (pragmatisme) هي مبدأ من المبادئ التّي تشبّعت به الثّقافة الأنجلوسكسونية وأثّر في فكر وسلوك الأمريكيين[13].

13 - دراسات في اللسانيات التطبيقية –حقل تعليمية اللغات- أحمد حساني ص: 20.